الباب الثامن

وفيه أربعة عشر موضوعا

(١) الوحدة فى الأمم ترجع الى قوتى العلم والعمل

(٢) كيف تصير الأمة كلها جسما واحدا وكيف تقارن بجسم الانسان

(٣) تأثير الاعتقاد فى الأمم

(٤) ما به نظام الدنيا والدين

(٥) مآل أهل المدينة الفاضلة بعد الموت

(٦) الأمة تضارع العالم كله فى نظامه

(٧) مزج الاسلام مصالح الدين بالدنيا

(٨) الترقى سنة العالم شرحها القرآن قبل داروين باثنى عشر قرنا زيادة شرح وايضاح

(٩) أقسام أهل المدينة الجاهلة وأعمالهم

(١٠) آراء أهل المدن الجاهلة

(١١) فى انماء الثروة

(١٢) فى الخشوع

(١٣) اعتقادهم فى العدل

(١٤) المدن ذات الروح أو الجسد والروح ثم الضالة والفاسقة

obeikandl.com

(١) الوحدة فى الأمم ترجع الى قوتى العلم والعمل

لا يشك من طالع أساليب حكم الخليقة وما أوتيت من لدن المبدع الحكيم ان كل قوة منحتها فانما ترجع الى قوتى العلم والعمل وهاتان القوتان كأنهما سلسلتان متناسبتان ملتصقتان سائرتان على نسق واحد أو عرقان يمتصان الغذاء لنبات واحد وعلى حسب قوتهما وضعفهما يكون ولنبدأ بقوة العلم وسنة رسول الله عزوجل فى ترتيبها فى مراتبها ثم نلحقها بقوة العمل وندعهما يتلاقيان فى طرفهما عند نتيجتهما وهى الحياة ونطبقهما على أمة الاسلام وكما ان كل نتيجة لها مقدمتان فهكذا الحياة نتيجة الوجود ولها مقدمتان العلم والقدرة

وان أردت البيان فهاك نواميس الوجود ترى ان أصغر الديدان أعطى قوة الحس لا غير فيمتص مما حوله ولم يعط غيرها ووهب من الحركة الضعيفة على مقدار تلك الحاسة الحقيرة فيسعى بالانقباض والانبساط كتلك الديدان المولدة فى بطون الحيوانات الكبيرة والخل واللبن والطين ونحو ذلك ثم يترقى عن ذلك ديدان الزرع فقد أعطى مع الحس الذوق ليفرق بين ما يناسب ومالا يناسب فيأخذ ويذر ثم ما هو أرقى من ذلك وهى حيوانات الظلمة فى قاع البحار أعطيت مع اللمس والذوق حاسة الشم لمناسبة ذلك لمراعيها التى تتربى فيها ويترقى عن ذلك حيوان أعطى قوة السمع مما يتربى فى الظلمات لما ابتلى به من حيوانات تؤذيه وفوق الجميع ما أعطى قوة البصر فاستكمل الحواس الخمس ثم ترقى الحيوان فى البر والبحر فى أنواع الذكاء وإبداء الغريب الى أن يربى أولاده كالحيوانات التى تبيض وفوقها التى تلد وأعلى منها ما تفهم عن الانسان بالتعليم وأرقى منها ما تقلده والإنسان أرقى من ذلك كله فيأخذ فى العلوم والتجارب ، ويصل بعضه بموهبة من مدبر الكون الى درجة النبوة بلا كسب من عنده ولا تجربة فهذه مراتب العلم من أدنى حيوان الى أشرف انسان ومع كل مرتبة من مراتب العلم ما يوازيها من العمل أو الاستعداد المناسب فترى كل حيوان له قدرة ما على السعى

اما الى هرب واما الى طلب على مقتضى ما يأمر به العلم اذ المعلوم اما مهروب عنه أو مرغوب فيه فلهذا كانت تلك الأعضاء والقوى صالحة للطلب تارة والهرب أخرى مختلفة باختلاف الحاجة وعلى حسب العلم المودع فيها فمنها ما ينقبض وينبسط ومنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجليه ومنهم من يمشى على أربع ومنهم من يمشى على أكثر من ذلك الى عشرة وعشرين وهكذا ومنها ما يعلو عن ذلك فيطير فى الجو بجناح يختلف مقداره باختلاف الطائر وقوته وخلقه (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) وقد اجتمع فى الانسان قوتا العلم والعمل وكل منهما يقوى الآخر فهاهى ذه الدول أمامنا اتخذت العلم رائداً للقوة معيناً لها والعمل كذلك قوة للعلم معينا له فهما قوتان لا يستغنى بأحدهما عن الآخر وقيجتهما الحياة وعلى حسبها تكون الدولة فهاهى ذه قوة العلم أصبحت تدل على المكتشفات والمخترعات وتعرف مواقع الدول ونظامها وصنائعها وأحوالها فتأخذ قوة العمل فى اعداد ما يلزم للمضارعة تارة والمقارعة والمصارعة أخرى واعسداد لوازم الحياة للحالة الحاضرة فمهما تنوعت قوى الحيوان من الرجل والجناح والسعى على البطن فانها ترجع الى القدرة لا غير ومهما اختلفت أنواع الحس من لمس وذوق وشم وسمع و بصر وادراكات وغرائز ورحمة على الولد وامتثال أمر وميل للتقليد وارتقاء فى العقليات فانه يرجع الى العلم

ولعمرك ما موقع الأمم المنحطة من الأمم الراقية إلا كموقع تلك الديدان فى أجواف الحيوانات الكبيرة من تلك الحيوانات تمسى وتصبح ولا حراك لها إلا الانقباض والانبساط ولقد ضرب الله مثلا للانسان بهذه الحيوانات وسلسلتها فى الترقى علماً وقوة وكأنه يقول أنا رقيت هذه الحيوانات فى قوتها فما لهذه الأمم أصبحت منشقة العصا ولو أنهم سمعوا وأبصروا لوقفوا على أحوال الأمم الراقية التى ابتلعتهم فى بطونها فهم يقولون فى الحياة قبل الممات لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير

وكل صنف أعلى مما تحته ولقد كرمتك أنت فأعطيتك عقلا يمكنك أن تصل الى ذروة المجد بل تطير فى عالم المدنية طيرانا أكثر من الباشق فى جو السماء . فهذه

الحيوانات لم تعط قوة الترقى وأنت أعطيت تلك القوة فما لك تقلد الديدان وتبقى فى حضيض الجهل والهوان فسحقا لأصحاب السعير وما الآخرة الا ثمرة من ثمرات الدنيا وقال تعالى (ومَنْ كانَ فِى هذهِ أعمَى فهوَ فِى الآخِرَةِ أعمَى وأضلُّ سَبيلا) والأعمى فى الدنيا من لا يرى رشده وأى رشد بعد معرفة حياة الأمة بين الأمم والأمن على الأرواح والأنفس والترقى على حسب سنن الكون فقد علمت من هذا ان كل الصنائع الداعية لقوة الدفاع والهجوم بجميع آلاتها الحديثه وهكذا كل ما به التجارة والزراعة والصناعة هى قوة العمل وما به إحياء العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفة الأولى هى ما به قوة العلم و بينهما تلازم كتلازم الطعام والشراب والسمع والبصر والعقل

(٢) كيف تصير الأمة كلها جسما واحدا

وكيف تقارن بجسم الأنسان

ظهر لك من نواميس الكون انه كجسم واحد وهكذا كل نبات وحيوان وانسان وكل جماعة منها له وحدة مخصوصة كالأجناس العليا والسفلى والوسطى وهكذا الأنواع ولم تقتصر الوحدة على سريانها فى المحسوسات بل سرت فى المعقولات فما من علم الا وله وحدة تجمع مسائله كالحد والموضوع فيقال علم الحساب موضوعه الأعداد من حيث الجمع والتفريق وهكذا بل كل طائفة من العلوم لها جامعة من وجه فأغلب العلوم الطبيعية يطلبها الطب والعلوم الرياضية يطلبها الفلك إذ لا يعرف إلا بالحساب والهندسة والجبر وهكذا علم العمران يحتاج للجميع والفلسفة تبحث عن مبادىء جميع العلوم فتتنبه العقول الى مدبر الكون فألزمت الأمم القدماء والمحدثين بالنظر فى جميع العلوم إذ هو فوق النظر فى هذه الأجسام واذا كانت الوحدة سنة الكون فلنتخذ جسم الانسان ناموسا نقيس عليه وحدة الأمة فنقول قدمنا فى فن التشريح ان جسم الانسان درجات بعضها فوق بعض من أدنى لأعلى لكل من الأعضاء مرتبة لا يتعداها ولا ريب عند الحكماء ان الأمة كجسم الانسان أو العالم كله فكما ان نظام الكون كله مرتب مراتب درجات بعضها فوق بعض وجسم الانسان كذلك ولكل حكمة فى الجسم

والكون فكذلك الأمة لكل فرد من أفرادها درجة فى بناء هيكلها قال تعالى (ما خَلقكم ولا بعثكمْ إلا كنفسٍ واحدَة) ولنبين معنى هذه الآية فنقول انها تشتمل على معنيين أحدهما ان خلقنا كنفس واحدة والثانية ان بعثنا كذلك .

أما الأولى فاعلم اننا لا نفهمها إلا اذا تأملنا تشريح الجسم فيما ذكرنا و بنينا عليه نظام الأمة فكما ان أعضاء البدن يخدم بعضها بعضاً فكذلك أفراد الأمة يعين بعضهم بعضاً (وتعاونُوا عَلَى البرِّ والتَّقوَى) وكما ان الأعضاء لكل منها وظيفة لا يتعداها ولا يصلح إلا لها فكذلك أفراد الأمة لكل واحد منهم استعداد لا يصلح لأعلى ولا أدنى منه إلا بقدرة وعلم جديدين فالدماغ مسكن الإدراك والفكر والعقل والقوى النفسية والحواس ولا يصلح لما هو دون ذلك من تحريك الدم فى العروق وجريانه وطبخ الطعام كالمعدة وغير ذلك والقلب لا يليق ان يكون بدل الامعاء ولا يستعد ان يقوم مقام الملك وهو الدماغ ثم الكبد وهو خادم القلب وكذا الرئة لا يقومان مقام القلب فيما اختص به ولا ينزلان عن طبخ الدم وادخال الهواء الى أقل من ذلك من مضغ الطعام وهضمه وهكذا خدام الكبد من الأوردة والأمعاء والمعدة والحلقوم والأسنان والصفراء والكليتين والطحال كل هذه لا تصلح للقيام لطبخ الدم بدل الكبد ولا يمكنها النزول الى درجة الأيدى والأنثيين وآلة التناسل فتعمل عملها وهكذا اليدان والرجلان وآلتا التناسل هى أسفل أعضاء الجسم منزلة وأدناها عملا فهى خادمة لا مخدومة و بالجملة فهذه الأعضاء ثلاثة أقسام منها رئيس ليس غير وهى الرأس ومنها مرءوس ليس له رآسة وهو الاطراف من اليدين والرجلين ومنها ما هو رئيس ومرؤوس باعتبارين وهو ما يلى ذلك كالقلب والكبد والكلية والمثانة فكل واحدة رئيسة لما بعدها مرؤوسة لما قبلها

فهكذا يكون افراد الأمة فالحاكم الأكبر منها بمنزلة الرأس من بقية البدن ولا يصلح إلا للأمور العامة ولا يتنزل للجزئيات كالدماغ

والقلب بمنزلة الوزير يجب أن يكون فى العلوم والمعارف والاستعداد والجاه أقل من الملك وأكثر ممن هو تحته فان كان أعلى مما هو فيه أو أدنى فهناك الطامة والفساد

ثم من تحت الوزارة من نظار المصالح يكونون بمنزلة الكبد والرئة والأوردة والشرايين التى تعطى الدم وتأخذه

فلا يجوز أن يكونوا كالوزراء استعداداً ولا مثل الذين هم أسفل منهم طبعاً مثل حكام المقاطعات وهكذا حكام المقاطعات هم بمنزل الكليتين والطحال والمرارة والعروق وكالحجاب الحاجز والصدر والحلقوم فهؤلاء لا يليق أن يكونوا كنظار المصالح استعداداً ولا كمن هم تحتهم من أمراء الجهات إدراكا وفكراً وجاهاً وهكذا حكام الجهات الصغرى ومشايخ البلدان الكبيرة والصغيرة فهم كالمعدة والأمعاء والقواطع والأسنان درجات بعضها فوق بعض لا يجوز أن يكون أحدهم مساويا لمن فوقه استعداداً ولا نازلا لدرجة من تحته فكراً وإدراكا ويسرى ذلك من الحاكم إلى الكاتب إلى الخادم والصانع والفلاح وهم الذين يخدمون ولا يخدمون فى مقابلة الرئيس الأكبر للأمة وهو الذى يخدم ولايخدم ومتى كانت الأمم على هذا النظام أصبحت تضارع النظام العام فى السموات والأرض وفى جسم الانسان الذى خلق فى أحسن تقويم وإذن تكون الأمة كلها مطابقة لخلق نفس واحدة وتقوم على أحسن منوال وهذه هى المدينة الفاضلة

(٣) تأثير الاعتقاد فى الأمم

من تأمل فى الأمم وجدها تشترك فى أمور تعمها ولولاها ماتعاملوا ولا تجاوروا وأهمها الاحساس بان لهم قوة يخضعون لها مسيطرة عليهم وما فى قلوبهم من رحمة على ابناء جنسهم والعقل الغريزى المنبث فى جميعهم وإن تنوعت الديانات وتباينت العقول واختلفت القوى ولكن الاحساس والفكر الشامل الغريزى ليس يخلو منه قط الانسان وعليه تبادلوا المنافع والتجارات والصنائع والعلوم وكل يميل إلى صناعة أو حرفة أو بلد أو أو أمة أو دين فاختلفت الفطر ولأجلها تنوعت الصنائع والأعمال

واحتاج كل فريق للآخر (ولا يزالون مختلفين إلا من رَحِم ربُّك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك)

وكما اشتركت الأمم فى الاحساس الفكرى والصورة الجسمية والحاجة العامة يجب أن تشترك كل أمة فى أمور تخصها لايشاركها فيها غيرها حتى تتم وحدتها وأرفع أمة هى التى يسرى فى جميع أفرادها اعتقاد بصانع الكون وصفاته وأنه مقدس واحد لاشريك له ليس له أول ولا آخر قديم باق ليس كمثله شيء تنزهت ذاته عن الأجسام والتجزئة والتقسيم شملت قدرته جميع الممكنات وعم علمه وكلامه الواجبات والجائزات والمستحيلات لا يصدر شيء إلا عن إرادته يعلم ما فوق السموات وما فى طياتها وما فى الجو والثرى وما تحته . وبالجملة إن كمالاته لا نهاية لها وهو منزه عن جميع النقائص وأن له ملائكة عظاماً وأنبياء ورسلا قد اتبعوهم ودانوا إلى آخرهم الذى أرسل إليهم كمن اتبعوا إبراهيم وموسى قبل المسيح ومحمد عليهم الصلاة والسلام وأن يكون فيهم علماء وحكماء خلفوا هؤلاء الأنبياء يقومون بالارشاد والاستنباط فيهم وإلا هلكوا وضلوا وذلك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيهم استعداد تام للدين والدنيا وسياسة الدارين فيقودون الخلق لمعاشهم ومعادهم ودنياهم وآخرتهم ونمو أجسادهم وقوة أرواحهم فانهم يتلقون الوحى عن مبدع الكون لما أفاض عليهم من الاستعداد وقد قويت فيهم القوة المخيلة والعاقلة وهم أذكياء أعفاء شجعان ذاكرون لما علموه نبهاء أمناء فطناء رحماء بالخلق قويوا البنية ليس فى أجسامهم ما ينفر طبعاً صادقون يبلغون ما أمروا به للخلق قائمون بسياستهم فى الدين والدنيا

(٤) ما به نظام الدنيا والدين

اعلم ان الدنيا والدين لا يصلحان الا بوجود أربعة أشياء الزراعة والتجارة والصناعة والسياسة والأخيرة مما قبلها بمنزلة الرأس من الجسد وكما لا يصلح الجسد الا بالرأس فهكذا لا تنفع صنائع الأمة وزراعاتها وتجاراتها إلا إذا قامت سياستها على الوجه الأتم

بل السياسة فى الأمة كالروح فى الجسم فكما تكون الامة جسداً واحدا له أعضاء متعاونة فهكذا يجب أن يكون لهم روح مدبرة سارية فيهم وهى القوة السياسة وهى إما ان تخص بواطن العامة والقائمون بها هم الوعاظ أو الخاصة فقط وهم الحكماء والعارفون واما أن تحكم على ظواهر الاجسام لا غير وهى سياسة الملوك والحكام واما أن تعم الجميع ظاهراً وباطنا خاصة وعامة وهى سياسة الانبياء عليهم الصلاة والسلام فاذا نقلوا إلى جوار ربهم جعل الله تلك السياسات موزعة فى طوائف من أممهم إذا أراد بقاءها فاذا ضعفوا عن حمل تلك الامانة ولم يقوموا مقام نبيهم باعتبار مجموعهم دل ذلك على اضمحلال تلك الأمة الضالة وأخذها فى الدمار والشقاء أما القائمة مقام نبيها فتختص كل طائفة من عقلائها وعلمائها بعمل فهؤلاء للوعظ وهؤلاء للحكم بالعدل وهؤلاء للتبحر فى العلوم ويتقاسم العامة أعمال الصناعات والزراعات ويتتبع مجتهدوها ومستنبطوها آراء نبيهم مع ملاحظة ما هم عليه والوسط الذى هم فيه إذ علوم الأنبياء تأتى للناس عامة لاسيما خاتمهم عليه الصلاة والسلام ويمكن انزالها على كل وقت وبالجملة فكل أمة تحتاج إلى نبى تتبعه وحكماء يستنبطون فان الله عز وجل خلق العقول وأنزل الديانات وكما أن لكل نفس قوى مختلفة والعقل رئيس عليها كما نشاهد من نفوسنا فهكذا لكل أمة عقلاء ولها نبى يجمع آراءهم

واعلم أن الناس مدنيون بالطبع وذلك ان كل فرد لايمكنه أن يقوم بجميع لوازمه فلا بد اذن من توزيع الاعمال عليهم بحسب الطبع والفطرة فيحتاج كل للآخر ولابد بعد ذلك من التبادل فيأخذ النجار ما عند الخباز والخباز ما عند النجار فيتبادلان ثم لابد من قسطاس يحكم بينهما بالعدل فوجب أن يكون بعض المعادن قاصياً حكماً حاكماً على القيم لاحظ لأحد المتتابعين فيه يكون معياراً للتبادل ودليلا على النقص والزيادة وقد اصطلحت أغلب الأمم على الذهب والفضة ثم لابد مع ذلك من طمع أحد المتبادلين فى الآخر فلا بد أذن من حاكم ناطق إذاعجز الحاكم الصامت من النقدين ثم بعد ذلك لابد له من ناموس يحكم به وإلا لأصبحت آراؤه وأوهامه وأغراضه لها

السلطان على الأمة وذلك القانون يقوم به العقلاء ولكن هؤلاء يختلفون بل الانسان الواحد يناقض نفسه فى وقتين مختلفين وإذن لا بد من شرع أتى به النبي ليقوم لعقول الأمة مقام عقل الشخص لقوى نفسه وما العقول إلا كالغذاء وما الشرائع إلا كالدواء فأى أمة اتبعت عقولها وتركت أنبياءها مرضت مدنيتها وان غلظت وعظمت كما نرى من قوم يكثرون من الاغذية ولا يتعاطون الأدوية فأولئك تغاظ أجسامهم ويدب فيهم الداء وتكون أمراضهم دفعية فتأتيهم بغتة فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون وهذا حال أمم أوروبا قد ترقوا فى كثير من شؤونهم العمومية ونبذوا الديانات فلم يراعوها إلا بين الأفراد بعضهم مع بعض فأصبحت معاملات الأفراد يغلب عليها الصدق والأمانة أما معاملات الأمم فانها تابعة للحظوظ ثم انهم أباحوا للأحاد بأشياء لم يراعوا فيها نص الشرائع السماوية كالربا والخمر فترى مدنيتهم زاهية زاهرة كالجسم العظيم السمين ولكن فيها أقوام كثيرون يعشون فى الأرض فساداً ويريدون أن يقوضوها على عروشها جزاء بما كسبت من ترك الدواء واستعماله كالاشتراكيين والنيهلست وهناك كثير من الأقوام أصبحوا فى أشد الفقر المدقع وعظيم الحاجة لسبب عدم التوازن بين الأفراد إذ العقل الانسانى لا يمكنه الإحاطة بجميع المصالح والمضار أما الناموس الالهى فينهى عن الربا مثلا لعلمه أنه يجعل الناس فى الأمة قسمين عبيداً وسادة لا غير وهذا هو الخلل العظيم وها هو حاصل فى أوروبا الآن ونرى ان الشرقيين على عكس أولئك تماماً فتركوا استعمال العقل فى شؤونهم العمومية . وقلدوا فى أمورهم الخصوصية وراعوا بعض الدين فانسلخوا من المدنية وانحطت قواهم إذ لم يرعوا موهبتى الله المفاضتين عليهم وهما قوة العقل والدين وماهم فى شؤونهم إلا كمثل من استعمل الدواء وترك الغذاء فتراه يشرب صباح مساء الأدوية ويترك الأغذية وهذا بلا ريب أحط من الأول مدنية وأقل منه شرفا فلا دنيا ولا دين على انه لا يتحقق دين بلا دنيا فتلخص ان أهل المدنية الفاضلة هم المتبعون لنبي المستنبطون المؤمنون بالله وبشريعته بعقولهم وان اختلفوا فيما بينهم فى الفروع كما تختلف أعضاء الجسد فى اشكالها من طول

وعرض وتدوير وصلابة ولين وعروق ولحم وانهم ان وقفوا على العقل وحده ضلوا أوالدين وتركوا العقل بالكلية خسروا الدين والدنيا جميعاً ويكون اتباعهم للدين بمجرد الاسم إذ لا دين إلا مع تعقله ومتى عقل الدين كان أدل على حفظ نظام الدنيا والآخرة معا وقد علمت حال أمم الشرق والغرب هذا حال الأمم فى هذه الحياة الدنيا

(٥) مآل اهل المدنية الفاضلة بعد الموت

إعلم أن هذه الدنيا عنوان الآخرة ولايجوز أن يعبر إلى الآخرة إلا على قنطرة الدنيا وأية أمة ظنت أن الآخرة تأتي بلا دنيا فهى جاهلة لم تدر شيئاً . ألم تر كيف فرضت فرائض المواريث وأحكمت شرائط البيع والشراء والهبة والقرض وحرم الربا والزنا والسرقة ودونت أحكام النفقة والمهر والدخول والطلاق والعقوبات من القطع والقتل والقصاص والجلد والرجم والتغريب والتعازير مما يجتهد فيه القضاة ، أليس ذلك كله لحفظ نظام الدنيا . ولعمرى إذا لم يكن عند الناس مال فأين المعاملات والبيع والشراء وأين المواريث والحقوق وأين تفرض النفقات ومن أين تكون السرقة والربا فهذه كلها جعلت قيوداً وشرائط لتحفظ بها هذه الحياة الدنيا ويعبر عليها بالعقول والأفكار إلى الآخرة بالأعمال الصالحة ومن ظن غير ذلك لم يفقه فى الدين شيئاً ولم يعرف لم خلق ثم إن أهل الكمال من الأمم كلها تراهم يميلون إلى فكر واحد ووجهة واحدة وهو الصراط المستقيم فيتعاونون على البر والتقوى عاملين بقوله تعالى (ولْتكنْ منكمْ أمةٌ يدْعُونَ إلى الخير ويأمُرُونَ بالمعرُوفِ ويَنهوْنَ عن المُنكرِ وَأُولئكَ هُمُ المُفْلحونَ) ، (وَمَا كانَ المؤْمنُون لِينفرُوا كافةً فلوْلا نفر منْ كلّ فرْقةٍ منهمْ طائفةٌ ليتفقّهُوا فى الدّين وليُنذرُوا قومهُم إذا رَجعُوا إليهمْ لعلَّهُمْ يحذرُون)

وقد استنتج العلماء رحمهم الله كالشافعى فى الرسالة وأصحاب الأصول عامة ان الصناعات واجبة وجوبا كفائيا ونحن نقول لما كان كل فرد له استعداد لعمل خاص فليكن يجب عليه أن يقوم بذلك العمل مع من له استعداد فيه كما هو ناموس الكون

obeikandl.com

ان لكل شيء من الموجودات منفعة ليست فى غيره وهذا هو الذى ادين الله به مهما اختلف الفقهاء فيجب على المستعد لعمل ما أن يقوم به حتى يبرع فيه ويجب على غيره من الأمة أن يشجعه عليه من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وسنعقد لهذا بابا خاصاً عند التكلم على مدنية الاسلام ونذكر انه يجب على ملوك الاسلام وأمرائه تنشيط كل مستعد لعمل ما الى عمله لتقوم المدنية بالقسط فى هذه الدنيا ويأخذ الناس بعضهم بيد بعض للدار الآخرة

وما الآخرة إلا ثمرة من ثمرات الدنيا ونتيجة من نتائجها (ربنا آتنا فى الدنيا حسنةً وفى الآخرةِ حسنة وقِنا عذابَ النار) ولا يكون ذلك إلا بأن يكسب كل امرئ اعتقاده الصحيح الذى ذكرناه آنفا بالله وملائكته وكتبه ورسله ونبيه الخاص ونظام أمته ثم يكسب أخلاقا حسنة ويلتذ بها فى حياته الدنيا . وكلما طال أمده فى الدنيا حسنت فى عينه صناعة من علم وعمل وإرشاد وعدل بين الناس فيقوى علمه وعمله وكل من أفراد الأمة يفرح بنظيره من سابقيه ومعاصريه فترى العالم يفرح بمن على شاكلته من أى بلد كانوا وعلى أى مذهب من مذاهب الفروع كانوا مع توجيه النفوس الى مبدع الكون فى أوقات معينة والمحافظة على الاجتماعات فى الصلوات والجمع والأعياد والحج ومواساة الفقراء بالأموال وهكذا مما أوصت عليه الشرائع وهذا حقيقة لاتتم الدنيا إلا به فاذا ذهب الناس الى ربهم كانوا فرحين بنفوسهم ونفوس أشكالهم فى جنة عدن فوق فرحهم فى الدنيا بمراتب وإلى ذلك تشير شريعتنا المطهرة ولذلك ترى المصلى يقرأ الفاتحة ويذكر الله بالرحمة العامة فى خلقه لعموم الناس ويحمده على تربية جميع العالمين تربية مصحوبة بالرحمة تارة والشدة التابعة للملك تارة أخرى ثم يقول ها نحن أولاء جميعاً نستعين بك إذ الأمة عبارة عن أشخاص كلهم كفرد واحد وكل فرد فيها كعضو من الأعضاء فنحن نعبدك جميعاً اذ لايقوم الواحد منا بالعبادة وحده لكثرة لوازم الوصول اليك والفرد الواحد لايقوم بها كلها كما أن العضو الواحد من الجسد لايعيش وحده ونحن مع هذه الكثرة البالغة لايمكننا أيضاً (ويومَ حُنَينٍ إذ أعجبتكم كثرتُكم

فلم تُغنِ عنكم شيئاً وضاقتْ عليكمُ الأرضُ بما رحُبَت) وانما الذى يعيننا على ذلك أنت وحدك فإياك نستعين فاهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم

هذا ملخص سورة الفاتحة من حيث المعنى اجمالا فهى ترجع الى اجتماع القوم المؤمنين فى زمن واحد ثم اذا نظرنا للتشهد وجدنا أنه يزيد على ذلك فيحيى الله تعالى و يثنى عليه كالنصف الأول من الفاتحة فيقول التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله وهذا نظير أول الفاتحة الى الرحمن الرحيم ثم يقول السلام عليك أيها النبى ورحمة الله و بركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فبعد أن يذكر الله تعالى يشرع فى ذكر نبيه ثم نفسه وجميع عباد الله الصالحين ممن مضى ومنهم فى زمانه و يأتى بعده فى أعلى السموات أو أسفل الأرضين ليربط قلبه بجميع المصلحين فى الأرض و يتذكرهم فيقتدى بأعمالهم فالمقصود من العبادات هذا التذكر والتفكر والرابطة بالجميع من كافة الطبقات ولهذا رمز الحكماء فى كتاب كليلة ودمنة بالحمام الذى تعاهد على التخلص من الشبكة التى وقعن فيها ثم بعد ذلك يوحد الله بالشهادتين و يصلى على النبى وابراهيم وآله لأنه هو الذى جاء بالتوحيد بعد دروسه فنظر فى ملكوت السموات والأرض وكشف له عن جميع ذلك ونزه الاله وملخص هذا ان الصلاة جعلت تذكرة لشيئين ذكر الله تعالى واستحضاره ثم ذكر من أصلح فى الأرض من الأنبياء ومن على شاكلتهم للاقتداء بهم ومن ظن انها مجرد عبارات تقال أو أن القرآن لمجرد التعبد فأولئك قوم ليس لهم حظ من الدين والشريعة والعقل . ورد فى رسالة الامام الشافعى رضى الله عنه ما معناه ان سائلا قال لم اخترت فى التشهد التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله السلام عليك أيها النبى ورحمة الله و بركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين الى آخره

فقال رحمه الله هذه رواية ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم فقال السائل أين أنت من رواية عمر وهو يخطب على المنبر يقول قولوا التحيات لله الزاكيات الخ فقال رضى الله تعالى عنه ان قول عمر صار اجماعا إذ لم ينكر عليه أحد فاقرارهم عليه

يعد اجماعا ولكنى فضلت رواية ابن عباس لاسنادها للنبى مباشرة فجعلتها أولى و إن كنت اعتمد رواية عمر فقال له السائل إن هناك روايات أخرى فى التشهد غير ما روى عن ابن عباس وعن عمر فماذا ترى فقال له رضى الله عنه متى صحت الرواية فاعمل بها لا فرق بين رواية و رواية ولا حديث وحديث مهما تعددت الطرق وتباينت الروايات فقال له السائل كيف يجوز ذلك ودين الله واحد وكيف تعدد الروايات ويصلى الناس بصلوات مختلفة أليس ما نزل الله على النبى شيئا واحدا فقال الشافعى رضى الله عنه اعلم ان القصد فى التشهد انما هو ثناء وهو يؤدى بأى صيغة وليس القصد التعبد بتلاوته فلا غرو اذا أدى بأى صيغة أو كيفية واذا كان القرآن نزل على سبعة أحرف وأريد منه معناه فما بالك بثناء يراد منه التعبد وهل تذكر ما روي ان هشام بن حكيم قرأ سورة الفرقان فسمعه عمر فأخذ بتلابيبه وأحضره عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله انه قرأ القرآن بغير ما أنزل فأمره النبى باطلاقه وقال اقرأ فقرأت أنا وهشام فقال صلى الله عليه وسلم بهذا و بهذا أنزلت نزل القرآن على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر

فتأمل كيف كان علماؤنا رضى الله عنهم لا يراعون الا المعانى فهذه الصلاة لم يقصد منها الا نزوع القلوب للخالق والاتحاد مع الخلق فى مصالح الدنيا ونظام الدين بتهذيب الأخلاق والأعمال الصالحة وكمال النفوس الانسانية والعقول البشرية وأى أمة لم تفقه من الصلاة الا ألفاظها ومن العبادات الا قشورها فقد ضلت ضلالا بعيدا عن المدنية اذ تبقى معرفتها بربها نباتاً ضئيلا لم يسق وائتناسها باخوانها ومساعدتها بقدر الضرورة وفيما عدا ذلك يكثر تحاسدهم وتضار بهم وتعديهم واختلافهم فتتمزق دولهم كل ممزق و يضمحلون كما اضمحل الأولون .

(٦) الأمه تضارع العالم كله فى نظامه

ولما كانت الأمة تضارع العالم كله فى نظامه نرى المصلى يقف تارة على استقامة وأخرى يركع كما هى خلقة نوع الحيوان ثم يسجد كالنبات وهذا مقتضى القسمة العقلية اعتدال وتنكيس وتوسط وهكذا الست الجهات فان المصلين حول الكعبة وفى أطراف المعموره يصلون اليها فيستقبلون الجهات الأربع و يرفعون رؤوسهم الى السماء ويسجدون واضعين رؤوسهم الى الأرض فكأنهم فى صلاتهم يشيرون الى نظام العالم كله وأن الأمة الواحدة يجب أن تكون كهذا النظام كله الذى هو كنفس واحدة فالأمة كالجسم الواحد وكالعالم كله من حيث النظام ووضع كل شىء فى رتبته ولم يكتف فى الإشارة بالاتحاد بتلك الأقوال والأفعال الاشارية بل جعلت الصلاه جماعة اشارة الى وجوب تضام القلوب فى المدينة وذلك خمس مرات فى اليوم والليلة لأهل المحلة الواحدة ثم فى خطبة يوم الجمعة لأهل البلدة

وتأمل كيف لاحظ الشافعى رضى الله عنه ألا تعدد الجمعة فى المصر الواحد لأنها فى الحقيقة سرها الاجتماع وقيام رئيس المدينة خطيبا يذكرهم بأحوالهم ونظامهم فى دنياهم وآخرتهم بمقتضى الأحوال الحاضرة لا مجرد أحوال محفوظة من الدواوين ثم اجتماع المصر ومن حوله فى العيدين والاستسقاء والخسوف والكسوف ثم اجتماع أهل الاسلام قاطبة فى مكة المكرمة من استطاع منهم سبيلا مرة فى العمر لتبادل الأمور العامة ﴿ جعلَ اللهُ الكَعْبَةَ البيْتَ الحَرَامَ قِياماً لِلنَّاسِ والشَّهْرَ الحَرَامَ والهَدْىَ والقَلائِدَ ذَلِكَ لتعْلَمُوا أنَّ اللهَ يَعلمُ مافى السَّموَاتِ وَمافى الأرْضِ وأَنَّ اللهَ بكلِّ شىْءٍ عَليم ﴾ فجعل الله الكعبة محلا يقوم به الناس ويتذاكرون دينهم وسياساتهم العامة وأعمال ملوكهم هذا هو من أجل مقصود الشرع السماوى الذى جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام

فاذا تم ذلك لهم دخلوا بعد الموت فى الدرجات العلى ونالوا حظاً بقدر ما تعاونوا

وتجتمعوا وتحبوا (لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا) فانظر كيف رتب الأيمان على الحب وذلك أن العقول لا يمكنها المعارف الحقيقية والقيام بالمدنية الحقة إلا إذا تحب أفرادها وتعاونوا فأذا لم يتعاونوا لم يطمئنوا فى حياتهم ينقص إيمانهم طبعاً ومتى نقص الأيمان لم يدخلوا الجنة إلا بعد جهد جهيد فالحب تبع انتظام الناس فى ماديأتهم وصنائعهم والايمان مرتب عليه ويتبعه راحة الآخرة وهذا ما قررناه سابقا فانظر كيف تطابقت الشرائع السماوية والأحوال الطبيعية والأمور العقلية (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) ولذلك قال تعالى (أولئك معَ الذينَ أنعمَ اللهُ عليهم منَ النبيينَ والصدِّيقينَ والشهداء والصالحينَ وحسُنَ أولئكَ رفيقاً ذلكَ الفضلُ منَ الله) وقال (وَوَهبنا له إسحق ويعقوبَ كلاً هدَينا) الى قوله (فبهُداهُمُ اقتَدِهْ) وقال (والذين آمنوا واتبعتهم ذُرّيتهم بإيمانٍ ألحقنا بهم ذريتهم) فأنت ترى أن مدار أمر الآخرة على المرافقة والاتحاد فبهما تنال الدرجات ولايكون ذلك إلا بالعمل فى الدنيا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم عند وفاته (اللهم الرفيق الأعلى) وكان كثيراً ما يقول ألحق بإخوانى الصالحين . وقال تعالى حكاية عن يوسف (توفّنى مسلماً وألحقنى بالصالحين) وقال سليمان عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام (وأدخلنى برحمتكَ فى عبادِكَ الصالحين) وهكذا مما هو شائع مستفيض مما يدل على ما قلنا فيما تقدم أن المدار على وجود الحب والرابطة بين الناس فبها تنال الدرجات ولعلك تقول لكل نبى أمة ومالنا ولصالحى الأمم المتقدمة بل مالنا والذين مضوا من قبلنا فى أمتنا إذ لا تعاون بيننا وبينهم قلنا اعلم ان الاجتماع هناك مع الأولين والآخرين ويحصل الفرح بالأشباه والنظائر من أى قوم كانوا وعلى مقدار كثرتهم تكون اللذة بهم فالعادل فى أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تزيد لذته بالعادل فى أمة عيسى وموسى وابراهيم ونوح وان حجب عنه فى الدار الدنيا .

ولما كانت لذة الانسان تكثر بكثرة أشباهه وأمثاله من أهل الكمال وكلما تمادى

الزمان زادت اللذة وعظمت جداً ورد طلب النبي صلى الله عليه وسلم التناكح والتناسل فقال (تناكحوا تناسلوا فاني مباه بكم الأمم يوم القيامة) وكلما كانت أمة النبي أعظم كانت درجته عند الله أكبر ولذته تبع لدرجته

واذا قارنا بين أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأمة ادريس التي انقرضت وهم المصريون الذين اخترعوا العجائب وأظهروا الغرائب لم يمكنا أن نحكم الآن وانما يمكن الحكم بعد انقراض الدنيا و بذلك يقارن بين أعمال الاسلام فى عمارة الارض وأعمال المصريين الأقدمين ولكن ورد فى القرآن فى ادريس ورفعناه مكانا علياً وورد فيه أنه رفع الى السماء الرابعة وورد فى السنة أن النبي صلى الله وسلم ارتقى الى السماء السابعة فلا بد أن تكون أمته أرقى من أمة المصريين السابقين لهذه الاشارة و بالجملة فأحوال الناس بعد الموت و يوم القيامة تبع لأحوالهم فى الدنيا (ربَّنا آتِنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرةِ حسنة وقِنا عذابَ النار ، أولئكَ لهم نصيبٌ مما كسبوا واللهُ سريعُ الحساب)

وأما ما ورد من ذم الدنيا وانها لهو ولعب وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد فالمراد منه صرف وجهتها الى المنفعة العمومية لاتركها بالكلية و إلا لحقها الدين قطعاً ومعلوم أن فى الطبيعة البشرية الحرص على الشهوات فتحصيل الدنيا أمر جبلي فى النفوس البشرية فنزلت هذه الآيات تزهيداً للناس فيها وتذكيراً بالآخرة ليصرفوا الوجهة القلبية الى المنافع العمومية والدار الآخرة ولم يؤمروا بتركها و إلا كان تعطيلا للمنافع وهل ترك صلى الله عليه وسلم الحروب أيام الرسالة فقد غزا غزوات و بعث سرايات تعد بالعشرات وكان يحتاط فى أمر الدين والدنيا جميعاً (ولولا دفعُ اللهَ الناسَ بعضَهم ببعضٍ لفسدت الأرضُ ولكن اللهَ ذوفضلٍ على العالمين)

(٧) مزج الاسلام مصالح الدين بالدنيا

من اللطائف أن شريعتنا الاسلامية مزجت أمور الدين بالدنيا مزجاً عجيباً ألا ترى أن صفوف الصلاة هى بعينها صفوف الحروب فترى فى كل أمة من الأمم نظاماً ودستوراً يقوم به كبار ضباط و يتبعهم فيه رجال العسكرية كالامام فى الصلاة فالمصلون هم المحاربون وكما وجب عليهم الصلاة صفوفاً وجبت عليهم المدافعة والمحاربة صفوفا منتظمين فتكون صفوف الصلاة كالتمهيد للاصطفاف فى الجهاد ولم يكن القصد من الأمم أن تقلد الامام فى حركاته وسكناته وقت الصلاة فقط وانما يقلد فى حركاته الخارجية فى الحروب وهنا كان فعل صاحب الوحى عليه الصلاة والسلام وخلفائه ومن على شاكلتهم ولولا هذا ما أمكن الثلاثة الذين تعاهدوا على قتل سيدنا على ومعاوية وعمرو أن يصلوا لهم فى يوم واحد فقتل على فى المسجد ونجا عمرو لاتفاق مرضه فى ذلك اليوم وأنابة خارجه عنه وصادفت الضربة ظهر معاوية بالشام فى الصلاة فعطل نسله فكان الخوارج عالمين بأن هؤلاء يصلون بالناس

وهكذا كانوا هم الذين يخطبون وهذه سيرة صاحب الوحى وخلفائه ومن على شاكلتهم فهم الخطباء علما منهم ان القصد من الصلاة والخطبة والحج وغيرها سياسة الدين والدنيا جميعا وان بينهما تلازما فى هذا الشرع ويا عجبا اننا ما سمعنا ان شرعا كهذا جاء باتحاد الدين والدنيا وسيرهما فى خطة واحدة أعجزت كل ذكى عن ايجاد حد فاصل بينهما وهذا هو الحق . وكيف يميز بين الماء والطين فى جسم النبات أم كيف تستغنى الروح عن الجسد والمعنى عن الكلم فها هنا امتزاج عجيب فانظر كيف خلف من بعدهم خلف فلم يعرفوا ما المقصود من ذلك فتركت الخطب فى أيدى الجاهلين والصلوات عند الضعاف فأصبحت لا ترى إلا أشباحا خالية من روح الفضيلة وما القصد من هذه العبادات

ومما تنشق له المرائر انك ترى المسلمين أثناء تأليف كتابى هذا بينهم الشقاق

والنفور فيها هى وادى التى هى مملكة وراء الصحراء الكبرى فيها نحو ستة ملايين من الأنفس فيهم مائتا ألف محارب وكلهم عند الحرب يقومون على قدم وساق وكذا جميع البلاد ولكن علمنا ان دولة فرنسا تريد الاغارة عليها بطريق القاء الشقاق والنفور بين كبار القبائل وهكذا دولة مراكش نسمع إن فيها قلائل كثيرة ومثلها فى ذلك دولة افغانستان فانها مع ما حصل لها من التقدم فى زمن الملك عبد الرحمن وابنه حبيب الله خان فان أهلها لا يزالون ذوى شقاق وهكذا مصر وأهلها وجميع أقطار الاسلام على شاكلة واحدة فى الخلاف والشقاق والنفور وما ذلك كله إلا لضعف التربية وترك ما أريدت به تلك العبادات والأعمال

(نتيجة) قد ظهر لك ارتباط الدنيا بالدين والأمة بعضها ببعض كأنها العالم كله أو النفس الواحدة واننا مرتبطون ببعضنا دنيا وآخرة كالنفس الواحدة و بهذا اتضح معنى قوله تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير)

أما كون الخلق كنفس واحدة فى الدنيا فقد اتضح مما ذكرناه فى أهل المدينة الفاضلة وانهم كالجسد الواحد وأما كون بعثنا كنفس واحدة فقد علم من الكلام فى هذا الموضوع

(٨) الترقى سنة العالم شرحها القرءان قبل داروين باثنى عشر قرنا

زيادة شرح و إيضاح

ولنرد الكلام على هذه الآية إيضاحا معقولا و بيانا صادراً عن استطلاع هذه الكائنات فنقول

الأمة تشبه النفس الواحدة من جهات كثيرة زيادة على ما تقدم . فكما أن الانسان الواحد يأخذ فى صغره لنفسه ما ينفعه فى كبره فكذلك الدولة تبنى أوائلها ما ينتفع به أواخرها

نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل فوق ما فعلوا

وكما أن الشخص الواحد يترقى شيئاً فشيئاً ثم يستوى شابا ثم شيخاً فهكذا الدولة تنمو فتشب وتهرم فتموت وكأن الدول كلها نفس واحدة تراها يتركون الآثار ويؤلفون الكتب ويأتى الآخرون بعد اندراس من قبلهم يترجمون كتبهم ويبحثون على آثارهم فياليت شعرى ما لهذه الأمم فالأولون حريصون جداً على تعليم الأخرين والآخرون أشد حرصاً على التنقيب على آثار الأولين تلك سنة الكون وناموس الخليقة وها هنا سؤال يهش له المغرمون بالملح واللطائف وذلك أننا نرى أن الدولة تندرس آثارها وتمحى علومها من لوح الوجود فهلا أبقى مدبر هذا الكون العلوم على وتيرة واحدة فتأخذ الأمة ما اختارته التى قبلها وتبنى عليه فيكون الترقى دائما بلا رجوع وما لنا نرى الناس الآن يجوبون الأقطار شرقا وغربا للبحث عن آثار الأولين ولا ينالون مما عرفه المصريون مثلا إلا قليلا من كثير ولا يفهمون الرموز المكتوبة الا بعد جهد جهيد كالكتابة الهيروغليفية وهى كتابة قدماء المصريين ففى النظر الظاهر ان هذا يخالف الحكمة نقول .

اعلم أنه عزَّ وجلَّ ما أرسل الأنبياء ولا علم العلماء ولا خلق الخلق إلا للترقى والكمال ولو أبقى علم دولة وأخذته من بعدها سهلا لطيفاً لو قفت حركة الكون وانحطت مرة واحدة وذلك ان الانسان لا يترقى فى عمل إلا بباعث وشوق وتنبيه وإرادة واختيار ينال به السعادة فلا سعادة فى الدنيا إلا بواسطة الشوق ومعنى الشوق ان يعرف الانسان شيئاً غاب عنه بعضه وحضر بعضه فيدل ما شوهد على ما غاب فيدفع النفس الى الغائب ما كان حاضراً مشاهداً فمن رأى عين الجميل أو يده أو وجهه أحب ان ينظر ما وراء ذلك وهكذا اذا رآه ثم غاب عنه فانه يبقى فى المخيلة ولكن مشاهدته تكون ناقصة فيشتاق الى اتمام الرؤية بحضوره ومشاهدته . فهكذا الأمة لا يحركها الى طلب المعالى والشرف إلا أن تكون فى ضعة وشاقها ما رأت من المعالى والكمال عند غيرها فتبحث لتعرف شيئاً من معارفهم ثم تبنى على انقاضه ما يوافق مشربها وما يناسب حالتها التى هى عليها وما هذه الأعاجيب فى الدول وتوارثها إلا كمثل الاستعارة فى علم البيان

والكناية فانه لا يجمل الكلام بالتصريح بالمعانى دفعة واحدة والأتيان به على وجه الحقيقة فانه لا يجد فى النفوس ارتياحا ولا هشاشة فاما الكناية والتورية فان اللفظ يؤتى به لمعنى ومنه يتوصل الى معنى آخر فكأنه أفهم المقصود برمز خفى وطريق يدعو الى البحث والتنقيب والتشويق

وهذا هو السر فى المجازات والكنايات والاستعارات المصرحة والمكنية والتشبيهات والاستعارات التمثيلية والمجازات المركبة والتعاريض والتلويحات وغيرها فكل لغة أمة مضت اتبعتها علومها و بقيت لها آثار تدل على بعض ماتعلم وتسلك الأمم المتأخرة سبيلا غير الذى سلكته تلك فتوافقها بعض الموافقة وتباينها فى أمور جديدة وربما زادت عليها فى أمر ونقصت عنها فى آخر وكم من علوم فى قديم الزمان لم يبق منها الآن على سطح الكرة الأرضية خبر ورب علوم حدثت بعد ان لم تكن وكل هذا ليظهر قوله تعالى (كل يوم هو فى شأن) فأما إذا بقيت العلوم بنفسها تماما كان النظام كله واحداً والفكر واحداً واتكل الآخرون على الأولين فى نظامهم وأعمالهم

وهذا هو الهاوية والسقوط والوقوف وجلّ مدبر هذا الكون عن الوقوف على نظام واحد انما هى شؤون تابعة لشوق فى النفوس شاقها باعث خارجى إلى مضاهاة من قبلها أو من ساكنها (ان ربكم لرءوف رحيم) ولقد علمت ان بين الأمم والكلام مناسبة عجيبة وان أحوال الأمم أشبه شىء بعلم البلاغة فها هنا بلاغة عملية وفى القول بلاغة كلامية وهذا هو المشابهة بين العناصر والحروف والقصد تشويق النفوس إلى الارتقاء

فمن هذا علمت أن الأمم كلها كنفس واحدة اتصل أولها بآخرها و بحث متأخروها عن أحوال متقدميها وانها كلها تشبه الانسان الواحد يأخذ من صغره لكبره ومن دنياه لآخرته ومن حياته لموته ومن صحته لمرضه ومن غناه لفقره كما ورد فى الحديث

ولعمرى أن النظر لهذه التدبيرات يشوق نفوسنا إلى التطلع إلى محاسن الكائنات

التى أمامنا فما أجمل العلم وما ألذ الحكمة فأينما تولوا فثم حكم بديعة ان نظرنا لارتباط الأمم وفنائها أدهشنا حكمها وان عطفنا على النظر للشخص الواحد هالنا حكمه وعجائبه ثم ننظر فنرى الأمة تأخذ فى الترقى من أطراف المعمورة الى من هم فى المناطق المعتدلة والغربية منها كاهل أوروبا وكثير من الشرقيين فكأنها أخذت فى الترقى من أطراف المعمورة الى الواسط

والأمم درجات بعضها فوق بعض فمنها ذات المدنية الفاضلة وقد تقدم شرحها بأجلى بيان اعتقاداً وعملا ولنذكر لك الآن الأمم النازلة عن الطبقة العليا مدنية واعتقاداً فنقول .

(٩) أقسام اهل المدنية الجاهلية واعمالهم

اعلم أن ترتيب درجات الأمم كترتيب درجات الحيوان سواء بسواء ولقد ذكرنا ترتيب الحيوان فى كتابنا هذا وأنه درجات بعضها فوق بعض ولنأت بها الآن إجمالا لتبتهج بمعرفة اتساقهما فى سلسلة واحدة حتى كان العالم كله نظام واحد وتفهم مايرى فى خلق الرحمن من تفاوت ونشرح الأمم واحدة بعد الأخرى الى أن نصل إلى المدينة الفاضلة فنقول .

أنت تعلم أن أدنى الكائنات رتبة العناصر البسيطة فالنبات الذى آخر سلسلة منه وهو النخل متصل بأول سلسلة الحيوان وأدناه ماله حاسة واحدة وهو اللمس كالديدان والعلق مما يخلق فى الخل وأنواع السوائل والنباتات والثلج و بطون الحيوانات الكبيرة فكل هذه حيوانات لو اخبرت بوجود حواس أخرى لأنكرت وجودها فلو قيل للصدف فى البحار أنت عندك حاسة اللمس ولكن هناك حيوانات عندها حاسة وهى الذوق كالديدان التى تسبح على الأعشاب والأشجار لأنكرت وجودها وقالت كيف يمكن أن أعلم بحاسة غير هذه وهكذا الحيوانات التى عندها حاسة الذوق إذا قيل لها ان هناك ماهو أرقى منك كحيوانات فى المحال المظلمة تشم ما بعد منها و بعضها

قد وجد لها عدو فى محالها فأعطيت حاسة السمع ولم يخلق لها حاسة البصر لعدم لزومها لأنكرت ذلك وقالت علم ما بعد عنى محال ولو قيل لجميع ماتقدم ان هناك حيوانا له حاسة تسمى البصر يرى البعيد عنه على ملايين من الفراسخ لأنكرت لك الحيوان ووجوده إذ لاتعلم طبقة من الطبقات إلا ماعلمها الله وتنكر ماوراء ذلك وهكذا يترقى الحيوان من الحواس الخمس إلى أن بعضه قد يحمى أولاده كالغربان ويزيد عليه غيره فينفع الأنسان بعمله ويقبل منه التأديب بدرجات بعضها فوق بعض كالبهائم وأذكاها الخيل ثم يترقى عن ذلك الى أن يقلد الانسان بدرجات بعضها فوق بعض حتى يصل الى درجة القرد والببغاء والفيل فكل هذه تقلد الأنسان فى أعماله أو تقبل عنه قبولا سريعا ويلى هذه الانسان . وكما أن كل درجة من درجات الحيوان السابقة اندرجت درجاتها السابقة فيها ولم تدرك مابعدها فالحيوان الذى له السمع قد أعطى الحواس التى قبله وهكذا ماله البصر قد أعطى السمع وما قبله وهكذا المقلد كالقرد قد أعطى كل مواهب الحيوان قبله فهكذا الأنسان أعطى مواهب الحيوان وكل درجة من درجاته فى المدينة أعطيت حظ ما قبلها وزادت عليه ، وكما أن الخمسة فيها جميع ماقبلها من الواحد والاثنين وهكذا والسبعة فيها الستة والخمسة والثمانية فيها السبعة وما اندرج فيها

فهكذا كل حيوان فى درجة أخذ موهبة ماتحته وزاد عليها والأنسان أخذ درجات ماقبله من الحيوان وكل درجة من درجات المدن فى كل شكل أرقى فانها أعطيت حظ ماقبلها وجهلت ما بعدها كدرجات الطفل والشاب الكهل والشيخ

فلو أعطى الطفل البساتين الغناء والتصدر فى المجالس لم يحفل بذلك وهكذا الشاب إذا أعطى بدل الشهوات الذهب والعلوم والمعارف لم يحفل بها فهكذا درجات الأمة كل درجة أخذت حظ ما قبلها وجهلت حظوظ ما بعدها وكأنها تنطق بلسان حالها (لا عِلْمَ لَنا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنا)

و إذا فهمت هذا فاعلم أن أول درجات المدن الجاهلة قوم رأوا أن المدار فى الحياة الدنيا على مابه بقاء الأشخاص وهؤلاء تسمى مدينتهم (الضرورية) لأنهم اقتصروا

على الضرورى من الحياة الدنيا فتراهم من الغداة إلى العشى يجدون ليأكلوا فاذاسئلوا لم تتعبون فيقولون لنأكل فيقال ولم تأكلون فيقولون لنعيش فيقال ولم تعيشون فيعجزون وينقطع جوابهم وهؤلاء المشار إليهم بقوله تعالى (إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نموت ونحيى وما يُهْلِكنا إلا الدهر) وترى فى كل أمة أقواماً يشبهون هؤلاء فى الفكر

وقوم آخرون رأوا أن المدار على ما يلذ الأنفس من اللذائذ الحسية والشهوانية ومدينتهم تسمى (الحسيةأوالخسة) وإليه الاشارة (ذَرْهُمْ يأكلوا ويتمتعوا ويُلْهِهِمُ الأملُ فسوْفَ يَعْلَمون)

وآخرون قالوا أن المدار على اليسار والغنى فأما اللذات فانها تكلفنا ما لاطاقة لنابه وتسمى (اليسار) وإليه الاشارة بقوله تعالى (وتَفاخُرٌ بينكم وتكاثرٌ فى الأموال والأولاد) .

وآخرون ارتقوا عمن تقدموا فقالوا ليس المدار على المال ولا اللذات والشهوات ولكن المدار على الكرامة فيعظم أحدنا عند اخوانه وعند غيرهم وتسمى (مدينة الكرامة) وإليه الاشارة بقوله تعالى (تِلْكَ الدّارُ الآخِرةُ نجعلها للذين لايريدون عُلُوّا فى الأرض ولا فساداً)

وجاء آخرون فقالوا إن المدار فى الحياة على جمع هذه الخصال كلها ومدينتهم تسمى (الجماعية) يقولون ننال اللذات والغنى والكرامة ونعيش متمتعين إلى أن نموت وهؤلاء ومن تقدمهم لم يعرفوا عن الاله ولا الرسل شيئاً

وما أشبه هذه المدن الخمس بسلسلة الحيوانات فى ترتيب الحواس فمنها ذات الحاسة وذات الحاستين وذات الثلاثة وهكذا إلى الخمس التى جمعت فوائد الجميع وعلمت علمهم

(١٠) اراء اهل المدن الجاهلة

قد علمت أقسام أهل المدن الجاهلة وكل قسم يكون طوائف وأقساماً مختلفة متشعبة منتشرة متكاثرة وأنهن فى درجاتهن أشبه بدرجات الحيوان فالضرورية كالديدان التى خلقت فى المائعات وأجواف الحيوانات الكبيرة فهى فرق شتى ومدينة الخسة ذات الشهوات كالحيوانات التى أعطيت قوة الذوق واللذة وهى تتشعب شعباً كثيرة وهكذا مدينة اليسار كذوات الشم ومدينة الكرامة كذات السمع إذ به تعرف أخبار العدو فتحترس منه والمدينة الجماعية كذات الحواس الخمس من النمل والحشرات فهى لم تترق بعد إلى درجة الحيوانات العليا التى يعلمها الانسان أو تقلده . فتأمل كيف تشابهت الدرجات وتناسقت المراتب بعضها فوق بعض بنسب محفوظة ودرجات متناسقة ملتئمة ثم أن هذه اللذائذ والكرامات والمعايش طلبوها فى الحياة بحسب ما غلب على عقولهم فقال قوم

أننا نرى أن هذا الوجود لانظام فيه ولا ترتيب فالحيوانات يقاتل بعضها بعضاً ويغالب بعضها بعضا . يأكل الكبير الصغير والقوى الضعيف فكل طائفة تأكل غيرها وتغالبها بل ترى بعض الحيوان يقتل الآخر لمجرد المشاركة فى الجوهر وإن لم يكن له حظ فى قتله فهذا دليل لنا على أن طبيعة كل موجود حب الانفراد بالوجود والبقاء وأن يمحو ما عداه وإذن قالوا وجب أن نتبع هذه الخطة فنقاتل أعداءنا من نوع الانسان ونغالبهم ونسبيهم لحظ نفوسنا لا لصلاحهم ولا لترقيتهم فهؤلاء جعلوا المدار فى الحياة ونيلهم اللذائذ الشهوانية على الغلبة والحروب والقهر مقلدين فى ذلك طبيعة الحيوان بحسب ما ظهر لهم وقالوا إنا كلما قهرنا أمة وأخذنا قبيلة استعنا بها على قهر غيرها لنحصل لذاتنا فى الحياة الدنيا إذ لانرى سوى هذا . فهذه طريقة المغالبة . ثم أنهم يستعملون مع الغلبة رابطة الجنسية فيستعينون بأبناء جنسهم وأولاد أبيهم الأكبر على مغالبة من سواهم وتارة يعتبرون الوطن الذى يسكنونه واشتراكهم فى

الهواء والغذاء والجو والطقس (وتسمى الوطنية) وتارة يرجعون فى الجامعة إلى رابطة اللغة المعبّرة عن ضمائرهم الموجبة للائتناس والمستلزمة قرب الاتحاد فى الأخلاق والشيم والعوائد وهى وحدة اللغة وتارة بالمصاهرة كما تصنع الملوك الذين يتحابون فى هذه الأزمنة فيتزوجون بنات بعضهم وهذه تسمى (وحدة المصاهرة) وتارة بالمعاهدة والمحالفة مع غيرهم وهى (وحدة التناصر) وتارة يتناصرون بكونهم كانوا تبع ملك جمعهم على عدوهم فتلك الجامعة يستعملونها بعد ذلك فيما يحبون فالوحدات التى تستعملها المدن الجاهلة سبعة وهى الاستعباد والنسب والمصاهرة والوطن واللغة والمحالفة والتناصر واتباع جامع لهم على الوحدة

ثم هناك أمور خاصة بطوائف وأناس ليست عامة الأمم وذلك كالاشتراك فى الذلة والقهر والصناعة كالنجارين والحدادين وعملة الفحم فكل هؤلاء لهم جمعيات لها عمل عظيم وهكذا الاشتراك فى لذة أو جناية كالزناة والسارقين وكالاجتماع فى محلات التلاقى فى سفر وكالوجود فى أمكنة لا أمان فيها . فأسباب الائتلاف بين أهل المدن الجاهلة أثنا عشر منها سبعة عامة وخمسة خاصة . فها أنت ذا علمت أقسامهم الخمسة وآراءهم واجتماعهم

(١١) فى أنماء الثروة

فاذا حصلوا الغنى والثروة والمال أخذوا ينمونه بطرق شتى فمنهم من ينميه بطريق المغالبة لاغير ومنهم من ينميه بطريق المبايعة وأنواع المبادلات وبعضهم يجعل المغالبة على الذكور والتجارة على النساء وآخرون يجعلون ضعفاءهم من الفريقين للمبادلات وأقوياءهم للمغالبة وقوم قالوا المبادلة مع بعضنا والمغالبة لغيرنا وآخرون قالوا نغالب الضعفاء ونبادل الأقوياء وهكذا لجميع الصور الممكنة وجدت فيهم فى غابر الأزمان

(١٢) فى الخشوع

وقالوا إن الخشوع شيء لامعنى له فانا نرى أن أناساً جاءوا مدعين أن عندهم قوة إلهية مع أنه لافرق بيننا و بينهم وهؤلاء لما عجزوا عن المغالبة وأخذ اللذات بالقوة رجعوا إلى الحيلة وكما أن اصطياد الحيوان إما أن يكون بالغلبة والقهر أو الحيلة بالآلات فهكذا هؤلاء الخاشعون يظهرون أن عندهم قوة قدسية وأمراً عجيباً فيظن الناس فيهم الخير و يعطونهم الأموال لجهلهم وتغطية أولئك على عقولهم وهم مغرورون فى ذلك مخدوعون جاهلون

ثم أن هؤلاء الخاشعين إن زهدوا فى هذه اللذات التى فى أيديهم فهم مغرورون جاهلون و إلى متى يتركون اللذات وهم لا حظ لهم فى هذه الحياة (مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنا الدُّنيا نموتُ ونحيي ومَا يُهْلِكُنَا إلاّ الدهر) ثم تراهم يقولون أنهم مغرورون بمدح المادحين لهم واطرائهم عليهم وما علموا أن قوماً يمدحونهم للطمع فيما فى أيديهم فيزهدون فى الأموال و يعطونها لمن حولهم فكلما ازدادوا مدحاً لهم ازدادوا زهداً و إعطاء وتباعدا عن اللذات والشهوات وأن آخرين يمدحونهم خوفاً منهم وآخرين يغرونهم استهزاء وسخرية وآخرين يمدحونهم مغرورين كغرورهم ظانين أن هناك لذائذ أحسن من هذه فتركوا الأدنى للأعلى

و بناء عليه فلا معنى للخشوع إلا الاحتيال والدهاء والمكر والخداع والنفاق وكل العالم يسعى للذائذ المتقدمة و يحتالون اما بالغلبة بالقوة أو الغلبة بالحيلة فغلبة القوة بجميع الطرق والوحدات السابقة والحيلة هى بالخشوع واعتقاد قوة قاهرة ودار بعد هذه يكون فيها النعيم

(١٣) اعتقادهم فى العدل

وأما العدل فانه أمر فرضى لامعنى له إذ الحيوان كله والانسان لايسعى أحد إلا لحياته وحفظ نفسه وأما ما عداه فانه يسعى لاستخدامه لمصالح نفسه وبقائه فى الحياة الدنيا . ألا ترى النبات كيف تسعى عروقه لاجتذاب المواد الغذائية من الأرض وكل حيوان من الجوارح والوحوش والسباع تقتنص الحيوان الضعيف لحظ أنفسها وشهواتها فأين العدل

وهكذا الانسان كل من قدر على غيره من بنى جنسه أهلكه وأذله وأخذ مافى يده وربما قتله وأعدمه لمجرد مشاركته له فى الحياة حسداً واستئثاراً بالحياة والبقاء . وأما العدل فانما هو أمر اضطرارى جاء لضرورة التوازن فى الحياة بين العشائر والقبائل والبطون فكل قبيلتين تساوت قوتهما اضطرتا الى المجاملة فى المعاملة والتبادل بالقسطاس المستقيم وتعاهدتا على المعاملة بالحسنى فاذا ضعفت إحداهما نقضت العهود والمواثيق ووجب قهرها وإذلالها وأخذ مافى يدها جبراً وهذا بعينه ما تفعله دول أوروبا الآن مع الشرقيين كدولتى تركيا والصين بخلاف معاملة بعضهم لبعض فهى خلاف ذلك فاذا دامت أمتان على تلك الحال مدة[1] جاء من بعدهم فظنوا هذا أمراً طبيعيا فتعاملوا كما كان الذين من قبلهم وهذا لا جرم جهل بالسبب الأصلى فى ذلك وطبيعة العمران فربما قويت أمة فالواجب عليها أن تأخذهم بالغلبة إذ الانسان لا يلزمه ان يعامل أهله ولا أهل بلده بالحسنى إلا لاضطراره لهم ولولا الاضطرار لوجب الانفراد بالبقاء فما بالك بمن هم أبعد عنه جنساً ووطناً ولغة وجامعة وتناصراً وتعاهداً فهم الأولى بالغلبة والأخذ بالقهر والقوة والخداع والختل ثم القتل والأهلاك أو الأبادة من الوجود فملخص آرائهم فى العدل انه قهر أو لا غرور آخراً

---

(١) كان ذلك منذ ٢٥ سنة حين طبع هذا الكتاب أول مرة أما الآن سنة ١٩٣١ عند الطبعة الثانية فان الصين والترك قد أصبحتا دولتين قويتين جدا

(١٤) المدن ذات الروح أو الجسد والروح

ثم الضالة والفاسقة

هذه هى أخس آراء فلاسفة المدن الجاهلة الذين هم أشبه بالهوام فى الأرض والحشرات الصغيرة التى لم ترتق الى فهم الانسان ومعرفة طباعه ولم تعلم كيف تتعلم منه ولم تدر ما مقداره فلم تصل لدرجة الحيوانات التى تبيض فانها تفهم وتعلم الانسان وأوامره لها فضلا عن الحيوانات التى تقلده كالقرد

وبالجملة فالحيوان ثلاثة أقسام قسم له الحواس الخمس أو بعضها ولم يفقه عن الانسان شيئاً قط وهذه هى الهوام والحشرات ونظيرها فى الانسان المدن التى ذكرنا أقسامها وآراءها وأعمالها

القسم الثانى الحيوانات التى تفهم عن الانسان وتقبل بعض تعليمه وتخضع لاشاراته وهى ذوات البيض وكثير من الحيوانات التى تلد كالجواميس والحمير وغيرها

القسم الثالث حيوانات تقلد الانسان فى أعماله ونظيرها فى الانسان المدينة الفاضلة فانها قلدت الخالق فى ملكه وفى صنعه فى جسم الانسان وهى المترشحة للترقى الى عالم أرقى من عالمنا هذا .

واذ تم الكلام على القسمين الأول والأخير فلنذكر القسم الثانى فنقول : قد ترقى عن الطبقة السابقة وهم أصحاب اللذائذ المذكورة قوم فنظروا فى الكون وقالوا . ان العدل بين الناس والمسالمة هما الأمر الطبيعى فاما المغالبة والمضاربة فهما خارجان عن سنن الطبيعة ألا ترى أن الأمة اذا اعتدت على الأخرى التزمت الأخرى بالمدافعة قهراً ولو تركوا وشأنهم لما حاربوا ولا قاوموا فالقتال والضرب فى نوع الانسان أمر غير طبيعى والمسالمة هى الطبيعية قالوا ان الواجب بين نوع الانسان هى المسالمة أما الحيوانات الأخرى فتؤخذ قسرا عنها لا نتفاع الانسان وهكذا كل نوع من أنواع الحيوان لا يأكل ابناء جنسه ويقاتل ما عداه والحيوان يأكل النبات الذى هو نوع

آخر وهذه هى طبيعة الكون هذا سيرهم فى الحياة الدنيا فمسالمتهم طبيعية ومقاتلتهم إنما هى لأمر خارجى ، أما اعتقادهم واليوم الآخر فيهم فى فرق شتى وأمم مختلفة وآراء متفاوتة

وترجع أحوالهم إلى ستة وتحت كل واحد شعوب وقبائل ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين

الفرقة الأولى قالوا ان الأنسان خلق فى الدنيا وهى دار باطلة ووهم زائل وما الحياة الحقيقية إلا الحياة التى بعد هذه فانه يستحيل عقلا أن تكون نهاية هذا العالم مانراه من هذه الدار التى كثرت شرورها وامتلأت بالمفاسد كل لذاتها آلام ومصائب وجل مدبر هذا الكون أن تكون هذه الدار هى الحقيقية بل هى دار يجب الخروج منها بالموت وهؤلاء هم المنتحرون بأنفسهم ومنهم كثير باوروبا ، والفرقة الثانية قالوا ان هذه الحياة حقيقية ودار حق ولكنها تشوشت بما عاق النفوس عن الكمال وما بنوا آدم فيها إلا كسفن تمخر البحار فأتتها الرياح من كل فج عميق وأحاطت بها الأمواج من كل جانب وأتت لها كوائر البحر من الأسماك الكبار والتماسيح فأصبحت تتهددها عاديات الأسماك وأمواج البحر وقواصف الرياح فلم يتم ما قصد بها ولم ينل منها الوطر

فهكذا الأنسان إنتابته حوادث الدهر وقواطع الشهوات وأهوال الحياة ومفزعات الخطر المحدق والغموم والهموم حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور فهذه الحياة لا ثمرة فيها ويجب التخلص منها

الفرقة الثالثة قالوا ان الأنسان هو الروح وبها حياته وما الجسم إلا عارض عاقها عن الأعمال لما شاهدوا أن المتجردين بالرياضيات يصلون إلى نعيم لا يحس به سواهم كما هو مذكور عن مدينتين ببلاد الهند غزاها الاسكندر كما ذكر الشهرستانى فى كتاب الملل والنحل وهو أمر مستفيض شائع فوجب التخلص من هذا الجسم فترجع الروح إلى عالمها وتخلص من آلامها

الفرقة الرابعة قالوا ان الانسان فى هذه الدنيا حق وهو مركب من الجسم والروح

معا ولا يصح اهلاكه إذ لا تكمل إلا بالجسم وانما العائق له عن الكمال الشهوات المحرقات وآلامها الموبقة وغوائلها العائقة عن العلوم والمعارف والحكمة فوجب إذاً قطع الشهوة والغضب أما الموت الحقيقى فمخالف لحكمة وجود الجسم اذ به كمال النفس وترقيتها إلى العالم الأعلى وليس يعوقها عن الكمال الا شهوتا الفرج والبطن فإذن يجب قطع دابرها بالصبر عنهما والاستعاضة عنهما باللذات الروحانية كما هو شائع مستفيض عن قدماء اليونان وعلماء الهند من البوذيين والبراهمة وخلفاء فيثاغورث وعلى هذه السنة كثير من المتصوفين الذين ساروا على طريقة هؤلاء ويظنون أنها طرق الاسلام

الفرقة الخامسة يرون أن الحياة حق وان الانسان مركب من أمرين متضادين وهما الروح والجسم كما قال الذين من قبلهم ولا بد من ازالة هذا التضاد باذهاب الرعونات من الجسم والنفس مع بقاء الشهوتين فى البدن وهؤلاء ومن قبلهم يقولون ان فى العالم الهين اله الخير واله الشر فللأول الروح وللثانى الجسم فوجب مغالبة الثانى لئلا يغلب الأول وذلك يكون بأضعاف شهواته أما بالأماتة كما فى القول الأول أو باذهاب النواتج عنها كما فى القول الثانى وأصحاب القولين اتفقوا على هذه الجملة «مت بالأرادة تحيى بالطبيعة» يعنون امت الشهوة والغضب يحيى عقلك ومعارفك واسندوا هذا التضاد لفاعلين كما ذكرناه آنفا وبعضهم أرجعه إلى تضاد المصنوع نفسه وطبيعته لا الفاعلين وهذا هو الشائع على السنة المتصوفة اليوم مع قطع النظر عما ترتب عليه وهو وجود فاعلين

الفرقة السادسة أنه لاحقيقة فى الكون البتة وكل ما شاهدناه يجوز غيره فانسان اليوم قد يمكن أن يظهر بشكل آخر فلا يمكن تحديد الأنواع والأجناس وهناك ينتفى كل ما يسمونه محالا فلا يمكن انكار شىء إذ يجوز أن هذا المنكر سيكون فى وقت ما فهذه ستة أقوال أصول كلها مقدمات لنظام الأمة الذى قدمناه فى آراء أهل المدينة الفاضلة وأنه يجب أن يكونوا كنفس واحدة ذات أعضاء متفاوتة وبهذا يدخلون دار السلام كما قدمنا

ويلحق بالمدن المنحرفة باقسامها الستة امتان المدينة الفاسقة والمدينة الضالة فاما الفاسقة فهم الذين قال الله فيهم (ولا تكونُوا كالَّذِينَ أوتوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قلوبهمُ وكثير منهم فاسقون) وهؤلاء هم الذين طال عليهم أمد النبوة ولم يظهر فيهم عقلاء وحكماء ففسق القوم فيها فحق عليها العقاب فدمرناها تدميرا فأول علماؤهم وحرف وعاظهم واحلوا وحرموا بالتفريع والجدال وكلما عرفوا شيئا ظنوا أنه أصل يبنون عليه وتركوا أصل الدين فعتوا عن أمر ربهم

وأما الضالة فهى التى أرسل لها رجل أوهم أنه يوحى اليه كالمهدى السودانى فقد غير وبدل وأحل وحرم بادعاء أن الخضر يعلمه فهذه هى الضالة وهى وما قبلها ملحقتان بالمنحرفة فتلخص من هذا كله ان الامم ثلاث طبقات كطبقات الحيوانات بعضها فوق بعض

طبقة جاهلة وهى خمسة أقسام ولهم أراء وأفهام تناسب معلوماتهم وهم فى مقابلة الحيوانات ذوات الحاسة الواحدة والحاستين وهكذا الى الخمس الحواس من طبقة الهوام و بعض الحشرات اللاتى ليس لهن معرفة الا بالمعايش فاما تدبير البيض واطعام الأفراخ والحمل و إرضاع الاولاد فليس لهن فيها من سبيل وهؤلاء هم المغضوب عليهم

وطبقة منحرفة وهى وملحقاتها ٨ أقسام نظير الحيوانات التى تبيض وتحضن أفراخها وتلد وترضع وتفهم عن الانسان بعض ما يلقى اليها من الأوامر بالأصوات الساذجة وهؤلاء هم الضالون لانهم عرفوا شيئا من أمر الخالق والاخرة والانسان ولكنهم تحيروا واضطربوا اضطرابا شديداً

الطبقة الثالثة هم المنعم عليهم وهم أهل المدينة الفاضلة وهم كالطبقة العليا من الحيوانات التى تقلد الانسان فى أعماله فمنها ماحسن صوته ومنها ماحسن لونه كالطاووس ومنها ما ينطق مقلدا له كالببغاء ومنها ما يفهم عنه بذكائه كالفيل ومنها ما له أدب حسن وذوق لطيف كالخيل اذ كثيرا ماتنجى صاحبها من عدوه بالعدو والفرار وتقيه

من الأخطار ولا تهز ذنبها اذا أصابها رشاش بولها لئلا يصيبه فينجسه وربما تحزن عليه اذا مات فتموت كما وقع كثيرا أو تمرض لمرضه كل هذا مجرب مشاهد ومنها ما يقلده فى حركاته وسكناته وهو القرد فكل هذه الحيوانات طبقة عليا وقد اعطيت حظ جميع ما تحتها وارتقت عليها بتقليد ما هو أعلى وهو الانسان فهكذا أهل المدينة الفاضلة نالوا الحظوظ التى نالتها الامم التى انحطت عنهم ولكنهم لاحظوا التوسط والاعتدال وارتقوا بها الى تقليد نظام مدبر الكون فى أعمالهم وأقوالهم فقلدوه فى نظام مدنيتهم وجعلوها على هيئة الجسم الانسانى أوهيئة العالم الالهى كما قلدت تلك الحيوانات الراقية الانسان فى حركاته وسكناته وصوته وجماله وان كانت نسبة تلك الحيوانات الى الانسان أقرب من نسبة الانسان المرتقى الى مدبر الكون

اذا فهمت هذه المراتب الثلاث فهمت اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين